[1]أحبُّوا ذواتهم محبة ضارة

هناك أشـخاص فيما يريـدون أن يبنوا أنفسـهم، يهـدمونها! وإذ يعملون على تحقيق ذواتهم، يفقـدونها! إنهم أولئك الـذين يحبون ذواتهم محبة خاطئة تكون ضارة بهم فمَن هم؟ وما نوعية أخطائهم؟

* منهم مَن يحب ذاته، بأن يجعلها تعيش باسـتمرار في أجواء من اللـذة الخاطئـة، لـذة الحواس ولذة الجسد ورفاهيته... هذه اللذة التي من أخطائها أنها تقود إلى الشـهوة وإلى الخطيئـة. وربما تؤدي إلى تدنيس النفس والجسد، وإلى الانغماس في اللهو. وبهذا كله يضـيّع الإنسان نفسه. ولا يعرف أيضًا قيمة وقته فيضيعه، بينما الوقت هو جزء من حياته... وهكذا يمتهن حياته دون أن يدري!

* وهنـاك مَن لا يلـذذ نفسه بـالحواس، وإنما بالفكر والفكر مجاله أوسع بكثير، فما لا يـدركه في الواقع بالحواس أو بالجسـد، يكفيه أن يغمض عينيه، ويؤلّف حكايات وقصـصًا وخيالًا وأحلام يقظة ويرى أنه يُمتِّع نفسه بكل هذا ويقول في فكره: سوف أصير وأكون، أو سوف أفعل وأفعل. وقد يغرق في مثل هذه الأفكار أوقاتًا طويلة. ثم يستيقظ منها على فراغ وضياع لم يستفد منه شيئًا.

* نوع آخر من النـاس يريـد أن يبني نفسه بالعظمـة التي تأخـذ مظهرًا خارجيًا غير حقيقي وغير روحي، لا يبنيهم بل يهـدمهم. أمثال هؤلاء قـد يقعون في الغرور، وفي التباهي والفخر، مما لا يقبله الناس منهم. وقد يقعون أيضًا في حب المظاهر، وحب مديح الناس، وإن لم يجـدوا مَن يمـدحهم، يمـدحون هم أنفسـهم ويشـرحون مواقـف تمجـدهم! بينمـا النـاس يحبون الودعـاء الـذين مهمـا بلغوا من علو، يعيشون في إنكار الذات. أمَّا العظمة الحقيقية فهي غير ذلك كله، هي في قوة الشخصية وفي فضائلها في قدراتها ومواهبها.

ولكن الذين يظنون أنهم يبنون ذواتهم بعظمة زائفة، فإنهم يذكروننا بقول أحد الآباء الروحيين: "مَن سـعى وراء الكرامة، هربت منه. ومَن هرب منها بمعرفة، سعت إليه وأرشدت الكل إليه"...

* إن أسوأ مـا في محبـة العظمـة، مـا يصل إليه البعض من البارانويا، أي جنون العظمـة، حيث يظن مَن يقع في هـذا الشـعور أنه أعظم الكـل، وليس مَن ينـافسه في عظمته! ويتخيَّل في نفسه مـا ليس فيه من صـفات العلـو والسـمو، ويطلب أن يعـامله الجميع بمـا يليق بعظمته!! وهكذا يخسر ذاته فيما يظن أنه يمجدها...

* والـذي يريد أن يبني نفسه بالعظمة، ربما يقدم نفسه إلى مناصب ووظائف ليس هو مؤهلًا لها. وإن نجح في الوصول إلى ذلك، تظهر الممارسة ضعفه، ويجلب على نفسه نقدًا ما كان أغناه عنه، ويحط مِن قدر نفسه عمليًا، فيما أراد أن يعليها...

* يوجـد أيضًا مَن يحاولون أن يبنوا ذواتهم عن طريق ما يتخيلونه زعامـة أو بطولـة ترتبط بشـيء من العدوانية، في صـراع وعراك تجدهم كشـعلة من نار، في حماس مسـتمر، للنقـد والهدم والتحطيم!! دون أن يقوموا بأي عمل إيجابي بنَّاء ... فلا تسـمع من أفواههم سوى عبارة: "هـذا خطأ، وهـذا مخطئ". ولـذتهم هي في انتقاد الكبار ومثلهم الأعلى هو (طرزان) الذي يقفز على الجبال، ويضـرب هذا وذاك شأن الفتيان الذين يحبون الأفلام السينمائية التي فيها ضرب نار، وقلب عربات، وقتل ... ويسمونها أفلام البطولات.

أولئك لهم الطبع الناري، دائم الهجوم، دائم العدوان، دائم الغضب والاقتحام. يفرح بأنه أحرج فلانًا من الناس، وانتصر وغلب، وفي محاولته تحطيم الآخرين يرى نفسه بطلًا يخشون بأسه. وفيما يظن أنه يحطم الآخرين، إنما يحطم نفسه، ولا يكسب في الدنيا والآخرة.

إنه مثـل التلميـذ المشـاكس في الفصـل الـذي يظن أنه يكون ظـاهرًا يُتعِب المدرسـين ويضـايقهم ولا يحترمهم، ظانًا أن هـذا جرأة وقوة شخصية! وغالبًا ما يرسب هذا التلميذ، وينجح زميله الهادئ... مسكين هذا الذي يرى نفسه مقاتلًا بينما هو يحطم نفسه!

والعجيب الهدم أسهل من البناء وأسرع. وكما يقول المَثَل العالمي: "البئر الذي يحفرها العاقل في شهر، يردمها الغبي في يوم"! سهل أن عمارة من عشـرين طابقًا يهـدمها أحد الأشـرار في لحظات، بقنبلة! ويبقى البناء هو العمل المجيد... أمَّا الهادمون فلا يهدمون سوى أنفسهم!

* نوع آخر يحبون أنفسـهم محبـة خاطئة، بمنحها الحرية في كل شـيء! يريد الواحد منهم أن يعمل ما يشاء، متى يشاء، كيفما يشاء!! محاولًا أن يتخلَّص من كل سُـلطة وكل نظام وكل قانون! ويرى أن التقاليـد قيد عليه، ولا يقبل التوجيهات أو النصائح. بل يقول: "أنا حُرّ. لا أقبـل تـدخلًا في حريتي"! بينمـا لا يـدري المعنى الحقيقي للحريـة من حيث هي تحرُّر من كل خطأ ومن كل نقص... أمَّا ما يـدَّعيه من حرية، فإنه يقوده إلى الضياع، وهناك فرق كبير بين الحرية والتَّسيُّب ... الذي يفقد فيه الشخص فضيلة ضبط النفس...

* يُـذكِّرنا هذا بالوجوديين الذين يجدون أنفسـهم بالتَّحرُّر من اللَّه ومن وصاياه. وشـعار الواحد منهم "من الخير أن اللَّه لا يوجد، لكي أوجد أنا"!! في شعور أن اللَّه يقف ضد نزواتهم وشهواتهم.

ومن أخطر أنواع الحريـة في الفكر الـديني افتخـار البعض بـأنه صاحب فكر جديـد في أمور الـدين وهـذه الحريـة المنحرفـة كثيرًا ما قادت

البعض إلى الإلحاد، أو إلى تكوين مذاهب خاصة! وأكثر من هذا، محاولة أولئك جذب الآخرين إلى فكرهم.

* هناك أشـخاص آخرون يريدون أن يبنوا أنفسـهم عن طريق مجد خاص بالغنى والمركز والشهرة وبعض المظاهر الخارجية، بينما المجد الحقيقي للذات هو في نقاوتها وحكمتها وقداسة سيرتها... ولكن المظاهر الخارجية لا تبني النَّفس مُطلقًا، كما لا تصحبها في الأبدية.

* البعض يحـاول أن يبني نفسه بـأن يبـدو بـارًا وبلاـ خطأ في أعين الناس. وهكـذا يغطي أخطاءه بتبرير الـذات والتماس الأعـذار في كل سقطـة! وفي هـذا الـدفاع عن النَّفس، لاـ مانع عنـده أحيانًا من الكـذب أو الرياء أو إلصاق السـبب بالآخرين! فيرتكب أخطاء أخرى. بينما الوضع الروحي لبناء النَّفس هو تنقيتها من الأخطاء، وليس التغطية على أخطائها.

أخيرًا أقول إنه من العجب أن يحاول البعض أن يثبت وجوده بطريقة تلغي وجوده أو تقلل من شأنه.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 13-1-2008م